القصص

مُقَطَّفَـــة

للأستاذ ابراهيم بك جلال
وكيل محكمة أسيوط الأهلية

كنا فى حاضرة صغيرة فى صعيد مصر ، يجرى فى سفحها النيل زاخراً فياضا ، وينطلق بين أغوارها رعاة الماشية فى إثر الكلأ ، وتستقيم على أنجادها بواسق النخيل يسطع بريق الضحى من سعفها كالأسنة فى متون القنا .

وكان فى أقصى المدينة خليج صغير يأخذ من النيل ، يجرى فيه الماء غديراً رقيقاً ، يفيض بركة ويمناً حول ربوة عالية فيها أكواخ بالية لقبيل من الناس ، عدتهم بين العشرين والثلاثين ، فيهم الشيخ والطفل ، وبينهم حفنة دون العشرة أهل بأس ونجدة .

وتمتد أكواخهم فى ذرى النجد كالحة الجدران ، تنساب بين شعابها عنزات مجاف ، وتنيخ بأفنائها الأباعر ، وتسبح فى أفقها أسراب الحمائم .

ولأهل ذاك القبيل حقل صغير فوق الربى العالية عزّ على القوم سقياه ، فشقوا له فى السفح ثلاثة « شواديف » ، يستقى أدناها من ماء الخليج فيسقى الذى يليه ، وذاك يحمل ما تعلل به من البلل إلى الثالث ، وذلك يلقى سقياه إلى الحقل .

ويتناوب أهل النجد تلك الشواديف ؛ فهم أبداً جاثمون تحت السعير المتقد من جمرة الصيف فى أثمال كشفها البلى عن سواعد دونها الفولاذ ، فيشتدون فى ساريات الشواديف جذباً ودفعاً حتى يستوفى الحقل رياً ، فيُفيئون إلى صفصافة فى الحى بها ظل وارف .

وكنا فى دهشة الحرب العظمى ، نخيم حول المدينة طائفة من جنود بريطانية يحرسون شعاب الصحراء ومفاوزها من أشياع السيد السنوسى ، فكنا نصطبح بفرسانهم دارعين يمشون الى المصاف ثم يعرجون الى المضارب .

وجاء فيض النيل غمراً كأحسن العهد بالوفاء ، وجرى الماء كثيفاً فى خليج أهل القبيل ، فاندفع الغلمان يسبحون فيه ، وتوافد النساء يرتمن ويلعبن .

وكان بالنجد عذراء فتية ، لونها الخمر اذا صفا ، وغرتها البدر ، وخطرتها الظبى ، وحدقها الها ، تسرى بين الربى فى قميص قُدَّ من قُبل فى غير إثم ولا حرج ، وفى خصرها نطاق من نسيج قرمزى كبرزخ الحسن ، يعلو بك صعداً الى معاقد ما بين ثديها حيث الفتنة نائمة ، ثم يهوى بك الى كثيب تنوء بساقاها .

ونشأت « مقطَّفَة » فى حمى اليتم ، فكفلها أخواها تحت جناحىْ رحمة ، وجعلا لها زخرف الثياب والعقود والأقراط ، وجمَّلا قدميها بخفين فيهما كل طلىّ من صنع المدينة ، وضربا لها خدراً كريماً بين الحمى ، فاذا أقلها الخدر وربض أخواها ببابه بات عريناً دونه جبهة الأسد .

وكرّت مقطفة الى مشرع الخليج وحولها أتراب من الغوانى ، فأشرق النجد أغواره ورباه ، ونضت ثيابها عن قامة كالغصن ، فنمرها مدلا بروعة حسنها ، ونسج الأتراب من معاصمهن حولها شفقاً رقيقاً كالذى تراه عند مغيب الشمس ، فكانت غرتها تشرق بينهن ثم تغرب فى دجى فرعها .

وقدمت فصيلة من جنود الانجليز الى الخليج أفراداً وجماعات حتى أكملوا المائة ، فنزعوا نعالهم الغليظة ، وبعثروا فوق الثرى قلانسهم ومناطقهم ، ثم نضوا بقية الثياب وافترشوا أديم الأرض ، يستقبلون النيل فى فورته واندفاعه الى الخليج ، وكانوا بمعزل عن أهل الحى تحجبهم هضاب وشعاب .

وخرج من صفوفهم فتيان يسبحان فى الماء ، وظلا فى مرح واستباق وتراش بالماء ، حتى رنت فى أفقهما أغاريد بنات الحى من أقصى الخليج ، فهوى أحدهما الى القاع يسترق الخطى ويسبح

الهوينا ، حتى كشف له عذارى النجد كالحلقة المفرغة حول « مقطفة » .

فخاب لبه ما صاغ الشرق من الحسن ، فهو كامن في أفنان النخيل ، وطيف النسيم العليل ، وصفاء الماء السلسبيل . وملاحة ذلك القد الأسيل .

وسرّح الافرنجي حدق المأخوذ في دمية النجد وغانية الحي ، وبهره وضح جبينها ودقة تكوينها ، وسولت له الفتنة أن يستق حيا ذلك الثغر المصفى .

ونم على الذئب حر أنفاسه فنفر الظباء في ذعر وفرق ، وتخلفت مقطفة تجمع أشتات العقود والعصائب ، وأسبلت قميصاً فضفاضاً يجرى ماء الحسن من جيبه إلى ذيله ، وهمت في إثر أترابها لولا أن لاحقها الافرنجي فرأت بشراً من غير معدنها في قميص منتدى يكاد يلوكها بماضغ عينيه ، ويمتص جموح غريزته الملحة ، فمد يمينه إلى جيدها القصّ ، ولكنها انتثرت كما ينتثر العقد بدداً ، وفرت إلى خدرها تملأ الحي رجعاً موجعاً والرجل يشتد في إثرها ، وتعلقت فتاة الحي بذروة خدرها ولوحت لأهلها بالعصائب القرمزية فكانت نفير النجدة .

وأبطأ الفتى الجندي على رفاقه من الانكليز . فخفوا في أثره وتسنموا ذرى النجد ، فخرج عليهم من ظلال الصفصافة حفنة من الفتيان غضاباً للأعراض والأحساب الكريمة ، يحملون سواريات الشواديف وفلولاً من أعجاز النخيل ، وانهالت السواريات تدق الضلوع ، وتفلق الهام ، وتطهر باب الخدر بالدماء ، واستعر لهب الملحمة واشتد أوارها ، وصرع من عامة الجند نيف وثلاثون .

وجاء النذير إلى دار الشرطة بالمدينة ، فقدموا على ضوامر الخيل ، وطوقوا الحي سهله ونجاده ، وحمل الجرحى إلى مضاربهم . وسيق الفتيان إلى السجن معصفدين في الأغلال .

وحشر أهل المدينة في الدروب والمشارق يستعرضون تلك الفئة القليلة التي غلبت فئة كثيرة باذن الله ، فاذا هم بضعة نفر من البدو غربا محجلين ، يمشون في سكينة وعزة ويقين ، مشية آبائهم مفاتيح النصر إلى اليرموك والقادسية ، حيث دكوا عروش الروم وفارس ، وجاء على أعقابهم نساء النجد يبكون حماة الحريم ورفات المجد القديم ، وفي طليعتهن مقطفة تندى النقاب ، وتهتك الحجاب ، وتندب الأهل والأصحاب .

وعقد مجلس التحقيق فكان مستفيضاً ، وطال أمده يومين كاملين .

وجاءت البينات من جنود الانجليز تشهد جراحاتهم وما تركت السواريات بأضالعهم وسواعدهم وأعجازهم وهامهم ، وأنف حماة النجد من الكذب ، وراحوا يصورون للقاضي ما كانوا فيه من دعة وسكينة بين الأهل والولد ، حتى وثب الجند بالعقائل يستحلون المحارم ويستبيحون الخدور ، فقامت سواعدهم بغريزة الذود وسجية الدفاع المشروع .

وكشف للناس فرسان من الانجليز يمشون في ركاب أمير الجيش إلى المحكمة ، ودخل القائد مجلس التحقيق في عتاده وشارات حسن بلائه ، فساور القوم قنوط ويأس وظنوا بالله الظنون ، وظلوا واجمين بالباب محتسبين عند الله أكرم القرابين .

ولهم معذرة ، فان مصر كانت في أغلال عرفية لا خيار لها ولا سلطان .

واستنار القائد بدخائل التحقيق وأسراره فنهض إلى الوثائق يجمعها ويطوى سجلها ويحكم رتاجها ، ثم عاد إلى مضاربه وبين يديه الجارمون من أهل النجد .

وهلل الفجر ففصت محاريب المساجد بأهل الدعاء ، يرفعون العقائر ويعلنون السرائر ، وتوارى بعضهم بين الشعاب المفضية إلى المضارب يتسمعون دوى البنادق وزفرات الشهداء .

فكشف للناس في أفق الصبح قوافل من السيارات تنوء بالعتاد والمضارب وفيها أشباح يخفقون ، وهي تطوى ما بين المضارب والمحطة .

وسارع الناس فرادى إلى الأفاريز فتبينوا بارقا من الرحمة ، وتوسموا الخير كله في نواصي السيارات . فقد كان ركبها من الذين استباحوا حمى مقطفة وأهل نجدها ، طوح بهم القائد إلى أطراف الديار .

وذخر القطار يمشي بهم في غير ذمة الله تشيعهم من ناحية القائد عين ناقمة متبرمة .

وأومأ أمير الجيش إلى سيارة موصدة فانفرجت عن فتيان النجد في أمن ودعة ، واستمعوا حكم البراءة مهللين مكبرين ، يلوحون بالعمائم ويملؤون الأفق حمداً وثناء على مكارم القائد ونبله .

وتقدمتهم إلى النجد مقطفة تلوى عصائبها القرمزية ، وحولها حلقة مفرغة من بنات الحي يغنين نغم البيد ، ويرتلن حلو الأغاريد .

ابراهيم مهدول